النقد العربي القديم
صورة لبلاد العرب ومرصد للأخلاق المجتمعية

د. بوعلام بوعامر

تمهيد

إذا كان الشعر العربي – لاسيما الجاهلي منه – صورة دقيقة لجغرافية بلاد العرب، ومرجعا موثّقا لأخلاقهم الفردية وتوجهاتهم المسلكية الجماعية، فكذلك كان النقد العربي القديم: لم يكن قيمة مضافة لنشاط إبداعي يدفع إليه الترف، ولا عداء شخصيا تحمل عليه المشاحّة والعداء الشخصي. كما لم يكن فرصة تُنتهز يقود إليها حب الظهور الشخصي، ولا محاولةً لقضاء فراغ، أو مجازفة غير محسوبة يغري بها الميل العبثي إلى التجريب في حقل النظريات والمناهج. وإنما كان صورة مكتملة الأبعاد للحياة المادية والروحية التي تميز بها المجتمع العربي، وحاول جاهدا حمل أفراده على تمثلها.

عصر ما قبل الإسلام

لذلك واكب النقد العربي القديم الإبداع الشعري في الجاهلية، وتابع النقادُ الشعراءَ، وحسَبوا عليهم كل كبيرة وصغيرة، منبهين إياهم على كل ثغرة يجب سدُّها، أو مروق عليهم أن يجتنبوه وهم يخوضون متاهاتِ القول الشعري، ويهيمون في أوديته البعيدة.

ولقد كان للتقاليد والأخلاق المرعيّة في النقد العربي القديم حينئذ من الرسوخ والسلطان ما جعل منها تقاليد فنية مفروضة، تصبح معها كل محاولة للخروج عليها ضربا من المجازفة، لا يجرؤ الشاعر على الإقدام عليها، مهما بلغت عبقرية الإبداع وروح التجديد لديه، ومهما طرأ على الحياة حوله، إلا ما كان من مظاهر خروج جزئي أو شكلي، جنحت إليه في بعض الأحيان جماعة من الشعراء. ولكن سرعان ما جُوبِه بعنف وقسوة، وصلت إلى عزلهم وخلعهم أحيانا، في إشارة واضحة إلى غلبة النمط التقليدي المتبع، ومدى تمكّن الأنا الجمعي في توجيه الشعر والنقد معا. لذلك كان الشعر بحق ديوان العرب غير مزاحَم، فبه دونوا أخبارهم وسطروا أيامهم، وحفظوا أنسابهم، ورسموا في كثير من الأحيان جغرافية بلادهم. فذكروا الأطلال وتغنوا فيها بمنازل الأحبة وبالمصايف والمرابع، وذكروا الجبال ، والشعاب، والأودية، ومساقط الغيث، والمراعي، والمنتجعات والمضارب.

واستطاع الشاعر العربي القديم بتلك المميزات والخصائص أن يحقق للشعر العربي أصالة قلما توفرت في أشعار الأمم الأخرى، وصدقا نادرا ما يلاقيه دارس الآداب الأجنبية قديمها وحديثها، وما من شك في أن الأصالة قيمة جمالية أولية، بل هي أصل كل القيم الجمالية الأخرى التي تفقد بريقها إذا ما تجردت منها.

وإذا كان الشعر العربي القديم قام على أصالة مشهودة في موضوعاته، وتقاليده الفنية، ولغته الشعرية، فإن النقد القديم الذي واكبه، ووجّهه كان مثلَه أصالةً وصدقا في تصويره الواقعَ العربي المعيش، وقيامِه مرصدا يتابع العملية الإبداعية في احترامها للمقررات الاجتماعية، والآداب العامة، والأعراف والتقاليد المتبعة. وعلى قدر الالتزام بها أو المروق منها يكون التقبل والرضا، أو الرفض والمواجهة بين الشاعر والناقد. و على قدر الأمانة أو عدمها في ذلك يكون الاستحسان أو الاستهجان بين القول والقول على القول.

لقد حكم هذا التوجهُ نقدَنا القديم، فصار هو أيضا صورة لبلاد العرب وقيّما على الأخلاق والتقاليد، إضافة إلى رسالته في التوجيه الفني، والتربية الذوقية الجمالية، والخصيصة الميتانصية التي يتميز به كل نقد، لكونه نصا حول النص. فإذا كان الشعر القديم مرآة تعكس بلاد العرب أخلاقا وأعرافا وطبيعة، فقد كان النقد المادةَ المستحضرة لإزالة كل ما يعلق بتلك المرآة من صدإ وشوائب من شأنها تشويه الصور، وحجب الحقيقة عن العيون. كان هذا دأب النقد قبل الإسلام،

إذ كان الناقد يتابع قول الشاعر، ويحصي عليه مفرداته وتراكيبه، كراهة خروجه عن المقرر، وخشية استبداله الفرقةَ ولو على صفوها بالجماعة ولو على كدَرَها . والشاعر مطالَب برعاية الأخلاق التي تعارف عليها العرب، ومن أهمها الوفاء وحفظ اليد والجميل، ولو مع الناقة، ذلك الحيوان الذي يشكّل بعدا من أهم أبعاد صورة البلاد العربية، لذلك عاب النقدُ القديم الشمّاخ واستهجن قوله لناقته:

إذَا بَلَغْتَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي

عُرَابَةَ فَاشْرقِي بِدَمِ الْوَتِينِ

" ... وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ لَهَا بَعْدَ اسْتِغْنَائِه عَنْهَا" (١).

وعابت أم جندب ضرب زوجها امرئ القيس فرسه في قوله:

فللساق أُلهوب وللسوط درّة

وللزجْر منه وقع أخرجَ مهذب

لأن ذلك في العرف المحفوظ دلالة على عصيان الحصان وجموحه.(٢)

كما عاب على طرَفة قوله:

أُسْدُ غيل فإذا ما شرِبوا

وَهَبوا كلّ أمُون وطمرّ

لأنه وصف نداماه بالكرم في حال سكرهم، فهو إذًا سلوك طارئ عن آفة وغياب عقل، لا خلق أو واجب يمليه الوعي والعرف الاجتماعي، وفضلوا قول عنترة:

فإذَا شَرِبْتُ فإنّني مُسْتَهْـــــلِكٌ

مَالِي وعِرْضِي وافرٌ لَم يُكلَـــــم

وإذَا صَحَوتُ فَما أَقَصّرُ عنْ نَدَىً

وكَما عَلمتِ شَمائلِي وتَكَـــــرُمِي (٣)

عصر النبوة والخلافة الراشدة

ويشتد هذا المنحى في النقد القديم مع بزوغ شمس الإسلام الحنيف، ويتأكد في عصر صدر النبوة والخلافة الراشدة. وهو أمر مفهوم بما أن النقد هو في أول أمره رسالة أساسها التوجيه، والدين هو أساس الدين أيضا، فكيف بالإسلام الذي هو الدين الحق الأكثر اتصالا بحياة الفرد والجماعة، والشواهد على ذلك، والنصوص من الشهرة والتواتر بحيث لا تحتاج إلى إعادة ذكر ودراسته.

لكن اللافت للنظر هنا أن النقد الأدبي المتشبع بتعاليم الإسلام الحنيف في هذا العصر لم يجنح إلى مصادمة بعض الأخلاق والعادات المجتمعية السابقة للإسلام، مع ما يتراءى من عدم ملائمتها تعاليمَ الدين الجديد، مثل المقدمة الطللية الغزلية التي تبلغ أحيانا حد المغامرة والتجاوز الحسي في الوصف، وربما يرجع ذلك إلى تقديره أنها عادات فنية لا أكثر، وبناء على ذلك لا خطر منها على العقيدة الجديدة، والأخلاق العامة. وإدراكه أن لها من الرسوخ ما يجعل من غير الحكمة مواجهتها عنوة، ومحاولة استبدال قيم أخرى بها، فترك للزمن مهمة معالجتها، ريثما تتولد في المجتمع الجديد شعريته الخاصة، فيستقل بموضوعات جديدة وصيغ فنية مبتكرة، على عادة الإسلام في تدرجه عند التعامل مع القضايا والعادات المستحكمة والمستفحلة في المجتمع.

أما في عصر الخلافة الراشدة فيكفينا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي هو أنقد الخلفاء الراشدين، وسيرته أحفل سيرهم بالنصوص النقدية، وهي نصوص تتأكد بها رسالة النقد الحريص على توطيد أخلاق المجتمع المراد بناؤه على أساس قيم جديدة، إلى درجة حمل أفراده على ضرورة تكييف الحاسة الخلقية لتلقي تلك القيم، بل تأويل المستحكم من القيم القديمة والمتوارثة بما ينسجم مع الواقع المستجد. وحسبنا من ذلك خبره مع وفد بني العجلان الذين استعْدوه على النجاشي الحارثي لهجائه إياهم، فسألهم أن ينشدوه ما قال فيهم فأنشدوه:

إذَا اللهُ عادَى أَهْلَ لُؤْم ورقّة

فعادَى بَنِي العَجْلانِ رَهْطَ ابنِ مُقْبِلِ

فقال عمر: إنما دعا، فإن كان مظلوما استجيب له، وإن كان ظالما لم يستجب له، قالوا: وقد قال أيضاً:

قُبَيِّلَةٌ لا يَغْدِرُون بِذِمَّةٍ ولا يَظْلِمُونَ النّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

فقالت عمر: ليت آل الخطاب هكذا !

قالوا: وقد قال أيضا:

ولا يَرِدُونَ الماء إلاّ عَشيَّةً

إذَا صَدَرَ الوُرّادُ عن كُلِّ مَنْهَلِ

فقال عمر: ذلك أقل للِّكاك ! قالوا: وقد قال أيضا:

تَعَافُ الكلاَبُ الضارِيَاتُ لُحُومَهُمْ

وتَأْكُلُ مِنْ كَعْبٍ وعَوْفٍ ونَهْشَلِ

فقال عمر: أَجَنّ القوم موتاهم فلم يضيعوهم ! قالوا: وقد قال:

وما سُمِّيَ العَجْلاَنَ إلا لقيلهــــــمْ:

خُذ القَعْبَ واحْلبِ أَيُّهَا العَبْدُ واعْجَلِ

فقال عمر: خير القوم خادمهم وكلّنا عبيد الله ...(٤).

لقد أبى عمر رضي الله عنه أن يصدر حكمه إلا بعد أن يسمع مقالة النجاشي فيهم، فعلَ القاضي العادل، الذي لا يفصل في قضية، إلا بعد قراءة لائحة الاتهام جيدا، وبعد الاستماع إلى أطراف النزاع، فكان أن طلب من بني العجلان أن يذكروا ما قاله خصمهم من شعر فيهم، فأسمعوه

إياه بيتا بيتا، وفي كل مرة كان يعلق على معناه، مبديا رأيه في فهمه، أو مؤولا إياه على غير ظاهر معناه.

فالنجاشي في البيت الأول لم يزد على أن دعا على بني العجلان، والأمر بعد ذلك وقبله لله، سبحانه وتعالى، يستجيب له إن كان مظلوما، ولا يستجيب له إن كان ظالما. أما كونهم لا يظلمون الناس، ولا يخفرون بالذمم فليست صفة ذميمة، بل هي فضيلة تمنى عمر أن يتصف بها أهل بيته. وأما تجنبهم المزاحمة على الماء، وانتظارهم المساء لأخذ حظهم منه فنظام، من شأنه فض التخاصم على الماء، والإسلام دين نظام. وأما عدم أكل الكلاب الضارية من لحوم موتاهم، فلأنها عاجزة عن الوصول إليهم، بعد أن دفنوا، وإكرام الميت دفنه. وأما مناداة جدهم بالعبد، فلا غضاضة فيها، إذ كل الناس عبيد لله.

لاشك أن عمر – رضي الله عنه – كان يعرف المعاني الهجائية، التي قصدها النجاشي، فليس عمر – وهو العربي المعتز بثقافة العرب وشعرهم – بالذي يجهل أن الشعراء الجاهليين، ومن تأثر بهم إنما يصفون بعدم الظلم، ونقض العهد الجبناء والضعفاء. وأن ورود الماء في العشيات هو للقبائل الذليلة القليلة العدد، العاجزة عن مصاولة القبائل القوية، ومزاحمتها على المناهل في الصباح، وهو معنى شائع لا يعزب عن العوام فكيف بعمر، ولقد اعتور هذا المعنى شعراء جاهليون وإسلاميون، أشهرهم في الجاهلية عمرو بن كلثوم، القائل في معلقته:

ونشرب إن وردنا الماء صفوا

ويشرب غيرنا كدرا وطينا

والماء الصافي إنما هو في الصباح، والكدر في المساء، ومن الإسلاميين الفرزدق القائل لجرير:

إن الزحام لغيركم فترقبوا

ورد العشي إليه يخلو المنهل

وفي القرآن الكريم هذا المعنى، في قصة سيدنا موسى عليه السلام، حين ورد ماء مدين، ووجد ابنتي النبي شعيب – عليه السلام – تذودان أغنامهما عن الماء، لضعفهما عن مزاحمة الرعاء. ولم يكن ليجهل أن الفارس العربي كان يأنف أن يموت على فراشه فيدفن، بل يفضل أن يموت بمجهل من الأرض قتيلا، وأن ينتهي جسده طعاما للجوارح والسباع ، وهو ما وصى به الشنفرى أعداءه، وقد سألوه عن مكان دفنه بعد قتله، فقال:

فلا تدفنوني إن دفني محرَّم

عليكم ولكن خامري أمَّ عامر

وقد استنكف خالد بن الوليد – رضي الله عنه – أن يموت على فراشه، غير قتيل، بعد خوضه عشرات الحروب والمعارك، فمات وهو يقول :"لقد لقيت كذا وكذا زحفا، وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثم هأنذا أموت حتف أنفي كما يموت العَير، فلا نامت أعين الجبناء" (٥). أما ما في معنى البيت الأخير، من مقاصد عند الشاعر الجاهلي فواضح.

لقد ظهر عمر في هذا النص بمظهر ناقد، يدرك أن الناس قد انتقلوا إلى بيئة فكرية وثقافية جديدة، فهو لذلك يسعى إلى محاولة حمل الجمهور على استيعاب هذا التحول، وتكييف ذوقه مع مستجداتها.

العصر الأموي

أما في العصر الأموي الذي كان للعروبة وأخلاقها وأعرافها الحضنَ الدافئ، والمعقل الأشِب وكانت الأصالة العربية تأوي منه إلى ركن شديد فلنا أن نقف عند فن الغزل لنرى ما كان للنقد من سلطان وقوة في التوجيه، ورعاية الأخلاق المجتمعية، وحماية الآداب العامة. ذلك أن الغزل هو من الفنون الأكثر علوقا بالنفس، ولصوقا بالغرائز، والأصدق في التعبير عن الذاتية والتفرد. لذلك يكون الشاعر الغزِل أجرأ الشعراء على التمرد، وأسرعهم إلى شق عصا الطاعة، والانفلات والمروق من كل قاعدة وقانون.

ومع ذلك وقف النقد وِقفة المحارب في وجه محاولات المروق والتسلل، التي حاولها بعض أقطاب هذا الفن أو قدّر أنها كذلك. وتحفظ لنا كتب النقد مواقف لنقاد في العصر الأموي، أحصوا فيها على الشعراء ألفاظهم المفردة، بَلْه أبياتهَم التامة بمعانيها المركبة.

وأبرز النقاد الممثلين لهذا الضمير الجمعي في العصر الأموي ناقد الحجاز الأول عبد الله بن أبي عتيق، الذي جمع إلى سلامة الذوق وصحة الطبع، روحا فكاهيا، كان مصدرا لكثير من نقده، الذي حمل طابعا كاريكاتوريا ساخرا، وقد كان صاحب لسان حديد على الشعراء الخارجين عن السنن والأدب، المارقين من العرف. وله في ذلك مواقف وعبارات وأقوال مشهورة في مراجعة شعراء الغزل ونقد ما لا يليق منه. فمما قاله لعمر بن أبي ربيعة، عائبا عليه نرجسيته وفضحه للنساء: أنت تنعت المرأة فتنسب بها ثم تدعها وتنسب بنفسك. أخبرني يا هذا عن قولك:

قالت تصدَّي له ليعرفنا

ثم اغمزيه يا أخت في خفَر

قالت لها قد غمزته فأبى

ثم اسبطرّتْ تشتد في أثري

وقولها والدموع تسبقها

لنُفسدَنّ الطواف في عمـر

أتُراك لو وصفت بهذا هرة أهلك ألم تكن قد قبّحت وأسأت وقلت الهُجْر ! لإنما توصف الحرة بالحياء والإباء والالتواء والبخل والامتناع ...(٦).

وهي مواقف شاركت فيها نساء عرف عنهن الحس النقدي المرهف، والثقافة الأدبية الواسعة. وذلك ما أضفى على تلك المواقف نقدا نسويا ظريفا ولطيفا، فاستحال بذلك غرض الغزل موضوعا للمرأة الناقدة، بعد أن أتى عليه حين من الدهر كانت ترتبط به ارتباط الموضوع فقط، وترتسم في ذهن متلقيه ارتسام التيمة المتكررة فيه. وذلك يدل – في جملة ما يدل عليه – على مشاركة المرأة الناقدة نفسها في الحفاظ على القيم الخلقية والاجتماعية، التي تشكل حدودا يجب على شاعر الغزل أن يلتزم بها، فليست خصوصية الغزل مبررا لعصيان الشاعر، وتحلله من سلطة الرقابة.

وتمثل سكينة بنت الحسين – رضي الله عنه – أنموذجا للمرأة المثقفة في ذلك العصر، وكان لها من قوة الشخصية عدل ما لها من عفة وشرف نسب، وكان من مظاهر قوة شخصيتها اقتحامها معترك النقد، متتبعة على الشعراء شعرَهم، مساءلة إياهم عما تراه هنة أو زلة ،غير هيابة من صاحب شهرة، أو ذي فحولة، فكان أن حل في ضيافتها نفر من الشعراء، فيهم جرير والفرزدق وكثيّر وجميل، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها، وتسمع كلامهم، ثم خرجت عليهم وصيفة لها تروي الأشعار والأحاديث، فقالت: أيكم الفرزدق ؟ فقال لها: هأنذا. فقالت: أنت القائل:

هما دلّتاني من ثمانين قـــامةً

كما انحط بازٍ أقتمُ الريش كاســرهْ

فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا

أحيّ يُرجّى أم قتيل نحـــاذره

فقلت ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا

وأقبلتُ في أعجاز ليلٍ أبـــادره

أبادر بوابين قد وُكّلا بنـــا

وأحمر من ساجٍ تَبِصُّ مسامره

قال: نعم. قالت: فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترتها وسترت نفسك؟ خذ هذه الألف، والحق بأهلك. (٧)

وإلى جانب مراعاة الأخلاق العامة كانت الدعوة إلى ضرورة مراعاة الأخلاق الخاصة، ومنها الأخلاق المطلوبة عند التعامل مع الخلفاء والمتصلين بهم، من رجال السلطة. لاسيما مع رسوخ تقاليد الحكم، وهيبة الحاكم، وإظهار أبهة السلطان في البلاط الأموي. وقد كان لعبد الملك بن مروان من هذا النصيب الأكبر، ولا عجب فهو مجدد الدولة ومؤسسها الثاني، والذي يقوم بين الخلفاء الأمويين في أصالة الذوق، وجودة الحكم النقدي، وكثرة مراجعاته للشعراء مقام سيدنا عمر بن الخطاب بين الخلفاء الراشدين، فلما مدحه جرير بحائيته الشهيرة، وبدأها بالمطلع القائل فيه:

أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِ

عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَاحِ

غضب عبد الملك بن مروان وصاح به:"بل فؤادك" (٨) .

واضح أنّ الشّاعر لم يقصد الإساءة إلى الخليفة، ولكنّه جرى على عادة العرب في خطاب النّفس بطريق التّجريد، لكن عبد الملك أخذه بظاهر اللّفظ، كأنّه يريد بذلك تأديبه وتوجيهه إلى اللّباقة في التّعبير، خصوصا في المطلع الذي هو أوّل ما يُواجَه به المخاطَب.

وأمام ناقد من هذا الطراز يجب الحذر: ناقد يدقق كل هذا التدقيق، وينقر كل هذا التنقير في الحرص على الأخلاق، وأخص الخاص من اللياقات والآداب السلطانية، لذلك عندما مدحه عبيد الله بن قيس الرقيات بقوله:

إن الأغرّ الذي أبوه أبو العاصي

عليه الوقار والحُجُبُ

يعتدل التاج فوق مفرقه

على جبين كأنه الذهب

قال له مستنكرا: يا بن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول في مصعب:

إنما مصعب شهاب من اللـــــه

تجلّت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه

جبروت منه ولا كبرياء(٩).

فمن طبيعة الأشياء أن يكون أحد أهم القيم، التي تشكّل محك نقد الشعر عند عبد الملك بن مروان القيمة السياسية، لكونه خليفة، ثم لأنه المؤسس الثاني أو المجدد للدولة الأموية، بعد انقضاء صدرها الأول، وخروج الحكم من الفرع السفياني، وانتقاله إلى الفرع المرواني بزعامة والده مروان، في ظروف عصيبة كادت تعصف بالدولة.

لقد شعر الخليفة أن هذا الشاعر لا يرى له شرعية في الحكم، لذلك اشتغل بالجانب الشكلي والمظاهر، التي لا تثبت

حقا، ولا تدفع شكا، خصوصا عندما يقارَن بقوله في عدوّ الدولة مصعب الذي وصفه بالعدل، وتلك هي القيم التي يسرّ الحكامَ أن يُمدحوا بها، حتى ولو كانوا على خلافها.

عاب عبد الملك من قول ابن قيس الرقيات ذلك المضمون السياسي من جهة، وتلك الصورة الهجينة والدخيلة، القائمة على تشبيهه بملوك العجم ذوي التيجان من جهة أخرى، وذلك ما فصّل الحديث فيه ابن سنان الخفاجي بقوله:" فأما إنكار عبد الملك بن مروان على ابن قيس الرقيات مدحه له بالتاج، فإنما أنكره لأن التيجان كانت من زي ملوك العجم ولم يكن خلفاء العرب يعرفونها فقال له: تمدحني كما تمدح ملوك الأعاجم، وتمدح مصعباً كما تمدح الخلفاء. والأمر على ما قال عبد الملك لأن مدح الخليفة بأنه شهاب من الله تعالى أبلغ من مدحه باعتدال التاج فوق مفرقه ... ".(١٠) وابن قيس الرقيات هذا كان شاعر الزبيريين الأول، بل كان مع مصعب بن الزبير، الذي صار رأس الزبيريين بعد مقتل أخيه عبد الله، حتى اللحظات الأخيرة قبل مقتله هو أيضا، وانتهاء الحزب الزبيري. فصار مكرها إلى مدح الأمويين. لذلك أحس عبد الملك من قراءة ما بين سطور هذا المدح أن هوى ابن قيس الرقيات ما يزال لـ"الحبيب الأول"، ذلك أن قصارى ما رآه من مميزات عبد الملك إنما هو التاج على الجبين اللامع، وهذا مذهب مريب، من شاعر محنك في بيئة عربية تستغرب فيها هذه المادح.

العصر العباسي

وفي العصر العباسي كان على النقد النهوض أكثرَ بمهمة الحراسة المشددة على ثغور الأخلاق العربية العريقة، لحمايتها والذب عنها، ومواجهة كل دخيل عليها. يحضه على ذلك تفاقم خطر الشعوبية التي شاركت بقوة في إسقاط الدولة الأموية الحامية للعروبة وأصالتها، وبادرت إلى التأسيس للدولة البديلة، والتمكين للكيان الجديد الذي أتاح لها قيامُه تسريبَ أطروحاتها العنصرية المعادية للثقافة العربية، ونفْثَ أفكارها التحيّزية في مفاصل الثقافة والأدب شعرِه ونثرِه، حتى جاهر الشعراء الشعوبيون بعقائدهم، واجترؤوا على إعلانها تحقيرا وتسفيها للثقافة العربية. بل وصل بهم الأمر إلى حد الإفصاح عن ذلك في نصوص طافحة بالمجون، والزندقة التي لا يخفى اقترانها زمنيا وعقديا بالشعوبية.

وهنا كان لا بد على الثقافة العربية أن ترد، وهي تستهدِف لهذا السيل من الهجوم الظالم، والتجريح الباطل، والعدوان الصارخ. وكان النقد الأدبي السلاح الأول المُعْتَدَ في يد الثقافة العربية وهي تتصدى لأعدائها. وقد حفظت كتب الأدب واللغة نصوصا كثيرة ومتنوعة ناطقة بذلك الدفاع المستميت عن العروبة، وصيانة مواردها العذبة عن الأكدار التي كانت تتدفق إليه من كل حدب وصوب.

فالثقافة العربية، وإن كانت من أرحب الثقافات صدرا، وأوسعها أفقا في تقبل المفيد من ثقافات الآخر، لاسيما بعد أن تحملت رسالة السماء الخاتمة، وامتزجت بالدين الحق المرتضى للناس كافة، إلا أنها – مع ذلك – من أشد الثقافات إباء، وأكثرها حَميّة في الدفاع عن نفسها والتمنع من الشوائب الضارة، التي شرعت بعض الثقافات الأجنبية تقذف بها إليها، وعلى رأسها الثقافة الفارسية التي لم يكن خافيا روح الاستعلاء وعقدة التفوق، والشعوبية التي اصطبغ بها كثير من المثقفين الوجهاء الذين عملوا على تغليبها في العصر العباسي.

وقد اشتركت في تلك الدفاعات النقدية فئات متعددة، من سوقة، وملوك، ونقاد متخصصين. وبل واضطلع الشعراء أنفسهم بتلك المهمة النبيلة، وكانت جبهات الدفاع متنوعة: فمن دفاع عن الذوق العربي في بناء النص الشعري، إلى دفاع عن التقاليد المراعاة في القصيدة، واللغة الشعرية، والمضمون الخلقي والاجتماعي، وغير ذلك مما له علاقة بأصالة الإنسان العربي، وموقفه من الحياة والفن.

حتى لقد يدافع الخليفة هارون الرشيد نفسه عن المقدمة الطللية الغزلية، ويجبر أبا نواس على احترمها وذكرها، مع أنها عادة عربية بدوية لم يعد لها أثر مشاهَد في الواقع المعيش في بغداد، وغيرها من حواضر العراق. ولكن حين يرى هارون أن أبا نواس يحتقر تلك العادة بدافع شعوبي استعلائي، وعن حس ثوري، وتمرد لا يحمده الحاكم عادة يتدخل، ويجبره على السمع والطاعة، فيمتثل الشاعر الشعوبي، ويذكر في مقدمة قصيدته تلك العادة التي كرهها واحتقرها قائلا في ألم وغضاضة:

أَعِرْ شعرَك الأطلالَ والدِّمَن القفْرا
فقد طال ما أزرى به نَعْتُك الخمْرا(١١)
دعاني إلى نعْت الطلول مُسلَّـطٌ
تَضيقُ ذراعي أن أجوزَ له أمْـــرا
فسمعٌ أميرَ المؤمنين و طاعـــةٌ
وإنْ كنتَ قد جشّمتني مركبا وَعْـرا

ومثل هذا من الشعراء موقف الشاعر الشهير البحتري المدافع عن الشعرية العربية والمنافح عن الذوق الفني العربي، في وجه تمحل النقاد المتشبعين بالثقافة اليونانية، وإدلالهم بالمنطق الأرسطي الذي أرداوا فرضه على الصناعة الشعرية، ومحاكمة الشعراء إليه. فهاجمهم مبينا زيف ما اصطنعوه وغربته وغرابته عن الثقافة العربية، مشيرا إلى افتقاره للأصالة، وبعده عن الميراث الشعري العربي الأصيل، في أبيات تحمل رؤية نقدية لافتة عند البحتري، وإحساسا دقيقا بطبيعة القول الشعري صحيحا إلى أبعد الحدود:

وخيرتي عقل صاحبي فمتى
سُقتُ القوافي فخيرتي أدبــهُ(١٢)
والعقل من صيغة وتجربـــة
شكلان مولوده ومكتسَبـه
كلفتمونا حدود منطقكم
في الشعر يُلغى عن صدقه كـذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ
ـطق ما نوعه وما سببـه
والشعر لمح تكفي إشارته
وليس بالهذْر طُوّلت خُطبـه

بل يصل الأمر إلى تبرير عادات اجتماعية جاهلية نهى عنها الإسلام، وحرّمها وجرّمها، كوأد البنات حين يعيبه الشاعر الشعوبي إسماعيل بن يسار النسائي على العرب قائلا:

إذ نُربّي بناتنا وتدسّو
ن سَفاها بناتِكم في التراب

فينبري له أشعب الطماع، مبررا ومفحما قائلا له :" ... أراد القوم بناتهم لغير ما أردتموهن له، قال: وما ذاك؟ قال: دفن القوم بناتهم خوفا من العار، وربيتموهن لتنكحوهن ..."(١٣)، مشيرا بذلك إلى عادة الفرس في نكاح المحارم قبل الإسلام.

خاتمـــــة

وُجد في تراث العرب النقدي من القضايا، والمفاهيم، والمصطلحات، والقيم، والأحكام، ما جعله نقدا ثريا، على الأقل بمقياس ما كان يطرحه الأدب عامة والشعر خاصة يومذاك، فقد واكب الإبداع الأدبي ورافقه وماشاه في مختلف منعطفاته. واستطاع استيعاب محمولاته الموضوعية والفنية، والأهم من ذلك أنه كان نقدا صارما معه عنيدا وعتيدا عند الحاجة إلى ذلك، أحْسَن القيام على ما توفر من أدب تلك المراحل الممتدة شعره ونثره، واستطاع توجيهه إلى ما به تحفظ قيم المجتمع الذي نبت فيه وتحترم ثوابته الثقافية والحضارية، فلا تظلم مطلقا بحجة التطور الذي ليس لزاما قيامه على أنقاضها، وتراعى أصالته، فلا تهضم مطلقا بحجة المعاصرة التي ليس من الضرورة أن تكون بديلا عنها.

المراجع

١. المبرد: الكامل، تح. محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. ٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج. ١، ص. ١٦٨.
٢. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الآثار، القاهرة، ط.١، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠ م، ج.١، ص. ١٩٤-١٩٥.
٣. المرزباني: . الموشح في مآخذ العلماء على االشعراء، تح. محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت،ط. ١، ١٤١٥هـ/٩٥م، ص. ٧٣.
٤. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، مصدر سابق، ج.١، ص.٢٨١-٢٨٢.
٥. ابن عبد ربه: العقد الفريد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣ م.
٦. الأصفهاني: كتاب الأغاني، دار الثقافة، بيروت، ط.٦، ١٩٨٣ م، ج.١٢، ص. ١٠٥-١٠٦.
٧. السابق، ج.١٦، ص. ١٠٨.
٨. ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط.١، ٢٠٠١ م.ج١، ص١٩٨.
٩. الأصفهاني: الأغاني، مصدر سابق، ج.٥، ص. ٧٠
١٠. ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، دار الفكر، عمّان، ط.١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦ م، ص. ٢٥٤.
١١. أبو نواس: الديوان، تح. أحمد عبد الحميد الغزالي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط.١، ٢٠٠٨ م. ص. ٣٨. مع اختلاف في رواية بعض الألفاظ والتوجيه النحوي.
١٢. البحتري: الديوان، دار صادر، بيروت، ط.٢، ٢٠٠٥ م، ج.١، ص. ٢٣٤.
١٣. العقد الفريد، مصدر سابق،ج. ٤، ص. ٤١٣.